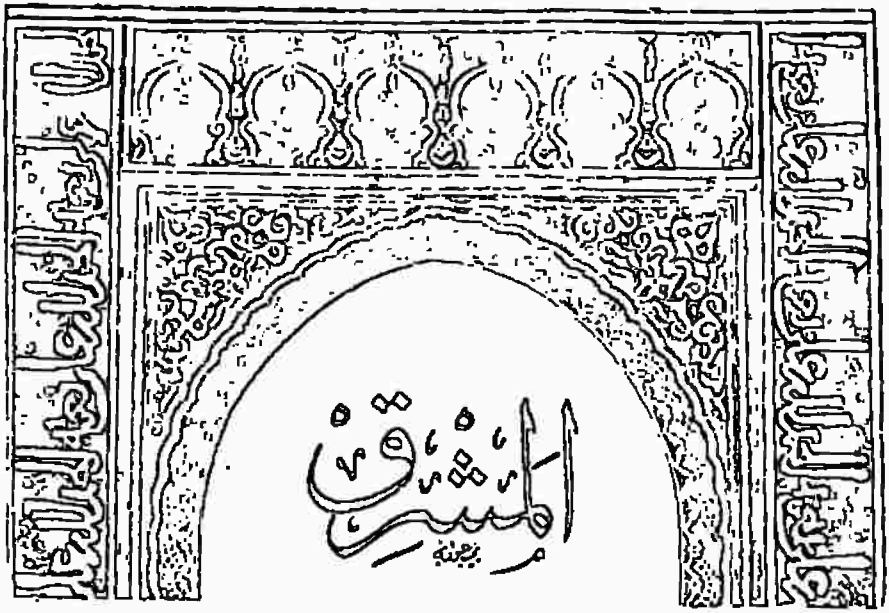

حزيران ١٩٢٩

الغرائب النفسية

بازاء الروحانية الزائفة والروحانية الحقة

بحث انتقادي فلسفي

للاب شرل ايلا اليسوعي

١

للمرحوم الدكتور يعقوب صروف ، في المقتطف الاغرّ ، عدّة مقالات موضوعها الغرائب النفسية مثل مظاهر ما تحت الضمير (*la subconscience*) وتأثير العقول بعضها في بعض بدون ما تعبير ظاهر وحتى عن بعد ، والتنويم ، والاستهواء ، وتعدّد الشخصية ، وما يُعزى الى « الوسطاء » من اصعاد ارواح الاموات ومناجاتها ، الى غير ذلك مما وصف الكاتب المذكور كيفية حدوثه الظاهر ، فحاول تعليله علمياً .

وقد طُبعت مؤخرًا هذه المقالات على حدة ، مجموعةً في كتاب « رسائل الارواح » وأُهديت منه نسخة الى مجلّتنا . فسُئلتُ ان الخّص لقرّاء « المشرق »

اهمّ ما يستدعي الاستغراب من الحوادث النفسية ، وان ابسط كيفية تعليلها ليس في نظر العلم الطبيعي والفلسفة النفسية الاختبارية (*Psychologie expérimentale*) فحسب ، بل في نظر العقلية منها (*Psychologie rationnelle*) بما تستمدّه من علم ما وراء الطبيعة العام (*Ontologie, Métaphysique générale*) وان كان صاحب « رسائل الارواح »[1] متن ، على ما يظهر ، لا يجهلون كثيرًا بهذا الفرع من الفلسفة.

ولمّا كان القسم الاوفر والاهمّ من مقالات المنشىء المرحوم[1] يدور حول مناجاة الارواح ، فاني اقصر القول على الموضوع ذاته ولا اعالج غيره الّا بالعرض.

وقد سبق في المشرق للمرحوم الاب لويس رنوڤال اليسوعي مقال[2] في الموضوع ذاته ، وللابوين يوسف مونجان ويوسف منسى اليسوعيين مقال آخر[3] فلا نعيد اقوالهم الا ملخّصةً وعند الاقتضاء.

ايضاحات ومرويات عن مناجاة الارواح[4]

مناجاة الارواح ، ويُقال لها ايضاً السپيريتسم ، هي اتصال بعض الاحياء ، اتصالًا واقعياً او مزعوماً ، بارواح الموتى ومحادثتها بطرق مختلفة للاستدلال على مكنونات الامور ، ولاسيما اسرار العالم الآخر.

وفي زعم المناجين والذين يتولّون امر تنويمهم ، والذاهبين مذهبهم ان الارواح لا تناجي كل الاحياء بل اشخاصاً عددهم قليل بالنسبة الى سائر البشر. هؤلاء وحدهم يُمكنهم مزاجهم وحالتهم النفسية ، ولاسيما الغيبوبة الناشئة عن التنويم ، من الاتصال بعالم ما وراء القبر . فيُدعون « وسطاء » (*médiums*) لتوسّطهم بين دنيانا والاخرى.

---

١) رسائل الارواح – مطبعة المقتطف والمقطم بمصر – سنة ١٩٢٨ – وفي الكتاب مقالة واحدة (ص ١٨٣) لغير المؤلّف ، وهي رسالة بقلم السيّد فيليب حتي ، من كليفلند باميركا. هذا خلا ما جاء في الكتاب معرّبًا عن بعض المجلّات الاجنبية.

٢) المشرق (٧ [١٩٠٤] : ١١٢١ – ١١٢٨)

٣) المشرق (١٩ [١٩٢١] : ٢٧٨ – ٢٩٠ و ٣٥٢ – ٣٥٨)

٤) في تاريخ مناجاة الارواح ومزاوليها راجع مقالة الابوين مونجان ومنى (ص ٢٧٩) و (L. Roure : *Le Merveilleux spirite*, Paris, Beauchesne, 3e éd., 1917, p. 1-91)

وقد ذكر الايوان مونجـان ومنسى (ص ٢٨١) اهمّ الغرائب التي تُروى من هذا القبيل . ولم نعثر في كتاب « رسائل الارواح » على مـا يختلف عن نوعها اختلافاً جديراً بالذكر . قال الايوان المذكوران :

١ – فمن ذلك وهو اكثر شيوعاً تدوير طاولة او اسكملة ، او قبعة افرنجية او سلّة ، وما اشبه ذلك ، بإجتماع عدة اشخاص متسلسلين او بعمل احد الوسطاء منفرداً .

٢ – ومثلها انتشاراً طرقات تضربها الطاولة على الارض اصطلاحاً ، دلالةً على اجوبة مقصودة ، عند وجود حلقة من الاشخاص حولها او وسيط من الوسطاء .

٣ – واقل شيوعاً مما سبق كتابة الطاولة بقلم يعلّق في قائمتها على ورق يوضع تحت القلم ، بشرط وجود الاشخاص او الوسيط السابق ذكرهم .

٤ – او يجعلون ايضاً قلماً في يد الوسيط في يقظته او نومه فيجري القلم كاتباً على الورق ما يوحي اليه من قوة اجنبية دون معرفته ومشيئته الشخصية .

٥ – ومثلها ندرةً ان يتكلف الوسيط النائم او اليقظان الجواب شفاهاً او بالاشارة على ما يُلقى اليه من الاسئلة باسم الروح الساكن فيه .

٦ – واغرب من ذلك واندر وضع ورقة او لوح ، بعيدين قليلاً عن الوسيط وعليهما قلم . وبعد قليل اذا كُشف عنهما يظهران وعليهما سطور مكتوبة .

٧ – ومثلها غرابة وندرة ان ينتقل الاثاث من تلقاء نفسه من مكان الى آخر .

٨ – ان يُسمَع صوت طرقات على جدران المحل حيثما توجد طاولة او بعض الاثاث .

٩ – واغرب من كل ما سبق ظواهر من النور واشباح يُرجا الوسيط او يرسم صورها بالفوتوغراف او يأخذ بعض آثارها .

رأي منسى ، « لرسائل الارواح » في واقعية المرويات عن مناجاة الارواح

تُرى هل وقعت فعلاً حوادث غريبة كهذه أم يمكن ان تقع ؟ تلك مسألة لا بدّ من البتّ فيها قبل الانتقال الى مرحلة التعليل . والا فعبثاً نحاول ايجاد سبب ما لا وجود له . ولم يكن المرحوم الدكتور صروف ليغرب عن باله ما لهذا البحث الانتقادي التمهيدي من المكانة والخطورة . والحق يقال انه بذل جهده في ايفائـه حقه ، بالرغم من شغفه بعلماء الطبيعة من انصار مناجي الارواح ، ولاسيما الانكليز والاميركان ، فيكاد لا يأخـذ شيئاً الا عنهم . واما رأيه في الامر فهو ، على ما ظهر لنا ، النفي اما لواقعية مناجاة الارواح ، واما لخروج ما دُعي باسمها عن نطاق القوى الطبيعية . اجل اننا نراه يصرّح[1] (ص٢٥) قائلاً :

١) راجع ايضاً مقدمة الكتاب ، ص ٦ .

« قد يظنّ البعض اننا ننفي مناجاة الارواح وقراءة الافكار نفياً باتاً . وهذا غير صحيح . والصحيح اننا نرتاب فيها لاننا لم نقف حتى الآن على ما يثبتها اثباتاً ينفي كل ريب . »

على انّ هذه العبارة يردف لها حالاً القول التالي :

« وكل ما اطلعنا عليه من هذا القبيل وكل ما امتحناه بانفسنا لم نجد فيه ما يخرج عن التخيل والخداع (١) أو ما لا يُفسَّر بالاستهواء الذاتي او ببعض النواميس الطبيعية المعروفة او ما لا يمكن رده الى غيره مما لا يتعذر تفسيره او ما فيه شبهة قوية »

وعندي ان الموقف الموصوف بهذا الكلام لا يختلف عمّا يدعوه المناطقة تأكيداً ادبياً وهو ما ليس فقط يُدعَم بحجج عديدة قوية ، بل لا يقوم في وجهه سوى الشكّ السلبي الذي لا لوم على العقل الرزين الفطني في ان يرذله ، لعدم استناده الى ادلةٍ جديّة . ولا نخال اهل النقد التاريخي يطمعون بتأكيد فوق الادبيّ هذا .

وعليه فالمفهوم من التصريح السابق ذكره ان صاحبه ينفي صحة مناجاة الارواح ، او قلّما يكون ، ما رُويَ عنها الى الآن . وهذا ما يُستدلّ عليه ايضاً من مواضع كثيرة من الكتاب الموصوف .

ولسنا ممّن يلوم المنشئ الفاضل على موقفه هذا ، اللهمّ اذا ما قصرنا الاعتبار على الغالب الاغلب بكثير من حوادث « مناجاة الارواح » . فان ثمّة من ضروب الخداع والانخداع والشعوذة والاوهام ما لا يخفى على ذي بصيرة .

ولا حاجة ان نعود الى ذكر الادلّة الواقعية على هذه الحقيقة ، وقد جاءت عديدة واضحة في كتاب « رسائل الارواح » كما في مقالة « المشرق » المذكورة آنفاً . وحسبنا هنا الاشارة الى الامتحانات العشر التي أجرتها باريس ، من ٦ ت ٢ الى ٨ ك ١ سنة ١٩٢٣ ، لجنة مؤلّفة من خمسة علماء من السوربون . وكانت النتيجة ، على ما اثبتته جريدة الاوبينيون في ٢١ ك ١ من العام ذاته ، اجماع اعضاء اللجنة على اثبات غش الوسيط الشهير غوزيك (Guzik) .

ولا ينكر خداع الوسطاء ، وانخداعهم ، اشدُّ العلماء ميلاً الى تصديق ترّهاتهم بل طالما اقرّ بذلك الوسطاء انفسهم ، بعد ان يئسوا من التملّص من الفضيحة .

---

(١) ويزيد صاحب المقدمة (ص ٦) : « والاخداع »

وزد على ذلك شغف الوسطاء ومنوميهم بالظلام . فلا يُصدون الارواح الا فيه ، مُدّعين انها تتأذى من النور . وناهيك من تّرهات وخرافات صبيانية يزعمون ان الارواح تتلهّى بها وتلهي بها وسطاءها .

ومن ثمَّ لا نستغربُ ما اورده مراسل المقتطف ، السيد فيليب حتي (وتراه في ص ١٨٣ من كتاب رسائل الارواح) ، من اعمال المشعوذ هوديني في سبيل اظهار مكر الوسطاء ولاسيما رنّر (Renner) الاميركي . بل قد نستغرب الضجة التي يقيمها الاديب المذكور حول نجاح هوديني . فيتخيل للقارئ ان هذا المشعوذ قد اتى البشرية برأس قاتل كليب وخلصها من اعظم البلايا ، او ان الكاتب قد هبط عليه وحي من السماء اذ كتب ما يلي (ص ١٨٦) :

« عافاك الله يا هوديني ملاك النقمة السالّ سيفه فوق رؤوس الدجالين ! انك قمت بخدمة للعلم والحقيقة عجز عنها اساتذة السيكولوجيا في جامعات اوربة واميركة . انت ساحر وسحرك حلال . اما هؤلاء المناجون فسحرهم يقضي عليهم وما فلّ الحديد الّا الحديد . . . . قامت ظافر ومناجر الارواح خاسرون ونحن الاحياء نتمتع براحة الفكر الناتجة عن الايقان بان ارواح موتانا لا ترعجها واسطة الوسطاء ولا جسها تدجيلهم . »

فيا لسوء طالع البشرية التي قُضي عليها ان تظلّ ، حتى مجيء هوديني في اواخر الربع الأول لقرننا هذا ، تتكّع في غياهب الانخداع ، لا يرتاح لها بال من قبيل ارواح اموراتها !

اما نحن فلا ندري اذا كان آباء مجمع بلتيمور الثاني ، كلهم او بعضهم ، قد درّسوا في جامعات اوربة او اميركة . لكننا نعلم ان هذا المجمع ، المنعقد عام ١٨٦٦ ، اي قبل هوديني بستين سنة ، قد حذّر المؤمنين[1] من خداع والخداع المناجين .

ومن الغريب ايضاً ان يذكر ، في هذا الصدد ، السيد فؤاد صرّوف ، صاحبُ المقدمة (ص ٦) ما عاناه غليليو وفرنسيس بآكون وما نالته الطريقة التجريبية من المقاومة « من قبل الفلاسفة الأرسطيين ومن ذهب مذهبهم من الادباء والكتّاب والوعّاظ » كأنَّ هذه نغمةٌ لا غنى عنها ، كلما جرى الحديث

١) راجع مقررات هذا المجمع (الباب الاول ، الفصل ٧ ، البند ٦) في المجلد ٣ من (*Collectio Lacensis*) العمود ١٠٦ .

على ما لهُ بعض العلاقة بالعقائد الدينيـــة . وعلى كلّ حال فلينعم الآن بالًا الكاتب الفاضل فها انّ « رجال الكنيسة » ، مهما قاوم بعضهم ، على مـــا يزعم (ص ٧) « حقـــائق الجيولوجيا والبيولوجيا حتى في هذا العصر » ، قـــد اتفقوا مع المقتطف على انكار اكثر مزاعم ذوي الروحانيـــة الزائفة ، ايّة كانت مقدرتهم في العلوم .

تعليل ما يروى عن مناجاة الارواح

الاسباب الطبيعية

قال الابوان مونجان ومنّي (ص ٢٨٨) :

« لا يمكن تعليل كل ظواهر السبيريتيسم بالشعوذة والخداع وانما يمكن نسبة بعضها الى علل طبيعية . » .

وصاحب « رسائل الارواح » على الرأي ذاته .

ومن هذا القبيل ما طالما تحققـــه العلماء من « انّ بعض الامراض كالهستريا والجولان في النوم (*somnambulisme*) ، والتنويم ، تشبه اعراضها حالـــة الوسطاء في السبيريتيسم . ويلوح لمن درسها ان في الانسان بعض القوى الخفيّة التي لا يدركها بالشعور وانما هي نتيجة تصرّفه وعاداته السابقة . فهذه القوى تُبرز اعمالها في بعض الظروف ، وبفعل بعض التأثيرات[1] » ولاسيما عندما يقع الوسيط في حالة الغيبوبة بفعل الاستهواء والتنويم .

وهذا مـــا يدعوه النفسانيون الاختباريون اعراض مـــا تحت الضمير (*phénomènes de la subconscience*)[2] . ولا تنحصر هذه الاعراض في حالة تشوّش الدماغ ، وتخدير الاعصاب ، بالانواع المختلفة . فانهـــا تظهر حتى في اصحّاء الجسم والعقل .

وقد ورد في « رسائل الارواح » (ص ٨—١٢ وغيرها) اكثر من مثل على ظواهر كهذه .

ومن مظاهر هذا الضمير الخفي ما رواه الدكتور صرّوف عن الفتاة ماري مايو (ص ١٨٩) التي كان ينوّمها الكولونل دي روشا . فاذا ما وقعت في الغيبوبة ،

١) مونجان ومنّي ص ٢٨٩ ٢) ويسمّيه الدكتور صروف : العقل الباطن او (*subliminal*) اي ما « تحت عتبة الوجدان » .

كانت تزعم انها عاشت سابقاً على الارض مرتين قبل ان تقمصت يوم ولادتها الاخيرة بشخصيتها الحاضرة. قال الدكتور صروف (ص ٢٠٥):

« واذا تقرَّر . . . ان عقلنا الباطن (اي الوجدان الخفي) يحفظ محفوظات كثيرة قد لا تكون شاعرين بها ، وان المؤثرات الخارجية (ومنها التنويم) تؤثر في الذهن الباطن وتولد فيه صوراً منطبعة على تلك المؤثرات ، جاز تفسير ما بدا من الفتاة ماري مايو . . . وذلك ان عقلها الباطن حفظ كثيراً مما سمعته او قرأته في حياتها ، فتذكرت بعضه وهي في حالة الاستهواء. ثمَّ ان مسائل الكولونل ده روشا ولَّدت في ذهنها صوراً جديدة جرَّدتها من محفوظاتها. فلما قال لها من كنتِ قبل ولادتك اخيراً ؟ قالت كنتُ امرأةً وقصَّت قصة امرأة تعرفها او سمعت او قرأت عنها . . . . »

وغنيٌّ عن البيان انه لا حاجة ، لتفسير اعراض كهذه ، الى الالتجاء الى التقمُّص ، كما يذهب بعض انصار مناجاة الارواح ، ولا الى تعدُّد الشخصيات وتواليها بعضاً لبعض في الانسان الواحد ، ولا تعدُّد القوَّة العقلية او الوجدانية في المرء الفرد . فيشهد الاختبار انَّ ما يُعبَّر عنه انه على سطح الضمير ، وما يُقال انه تحته ، لا يحلَّان في العقل منطقتين منفصلتين مستقلتين الواحدة عن الاخرى ؛ بل نراهما غالباً متَّصلين لا ينفكَّان يؤثران الواحد في الآخر ويتعاونان. فقد جرى لك اكثر من مرَّة انك تحدَّث شخصاً . وفي اثناء مخاطبتك له يفوتك امرٌ ما او لفظة فلا تعود تتذكرهما . فتقول : تأنَّ عليَّ ريثما تعود اليَّ الذكرى . وتواصل الحديث. فغالباً لا تمضي بضع دقائق الَّا ويرجع اليك الفكر او اللفظة ، فتنوه بها في الحال . ترى هل عادت اللفظة من ذاتها ؟ ام ليس عقلك هو الذي كان يفتش عنها ، بينما كان يواصل الحديث في امر آخر.

كذلك لا حاجة ، لكشف غوامض العقل الباطن ، الى ابتداع «جوهر عام يشترك فيه جميع الناس» مما يعود بنا الى الصور الافلاطونية ، او الى احلام اصحاب مذهب الحلول. وكأني بالدكتور صروف قد انصرف الى المزح والهزال اذ قال (ص ١٢) ، بعد ان استغرب الرأي شديداً : « ولكن تُفسَّر به امور كثيرة مما يفسر تفسيره بغيره. واذا اثبتته المباحث التالية اثباتاً ينفي الريب ثبت ان الناس عائلة واحدة او اعضاء جسم واحد مشتركون في نفس واحدة. » !!!

ولا نكرر هنا ما جاء في «رسائل الارواح» ومقال الايرن مونجان ومنى من تفنيد مزاعم اهل السپرتيزم ولاسيما ، على ما بيَّن الايران الفاضلان ،

محاولتهم انشاء ديانة جديدة عقيمة سخيفة ، مبنية على وحي الارواح الموهوم[1].

لكن ، قبل ان نختم هذا القسم من بحثنا لابد من كلمة وجيزة في «المائع الحيوي» (*fluide vital*) . قال الايران مونجان ومنسي (ص ٢٨٤) :

« وان سألت هؤلاء المتدينين الى المذهب الروحاني : وكيف تستطيع ارواح مجرّدة عن المادة ان تتصل بعالمنا هذا الحيوي وبالبشر المتجسدين ؟ يجيبونك بقولهم : ان للجسم البشري مائعاً يدعونه بالعنصر الكوكبي (corps astral) او العنصر المحدق بالروح (périsprit) (٢) يستطيع الانسان ان يبعثه من جسمه اذا شاء ويمكن الوسطاء تعويده بنفوذ الارواح . فهذا المائع هو الذي يدير الطاولات ويرفع بها عن الحضيض . . . . فالوسطاء على زعمهم يحيطون هذا المائع في صورة الارواح التي تستمدّه لنايائها . . . . »

ولا حاجة الى الاسهاب في تفنيد هذه المزاعم . فليس لمروّجيها الّا واحدة من اثنتين : فاما يكون هذا المائع ماديًا واذ ذاك كيف تتصل به الارواح ؟ واما يكون روحيًا وعندئذٍ كيف تبعثه الاجسام ؟ بل كيف يصل بها الارواح وكيف لا تستغني عنه وهو لا يختلف عنها عنصرًا ؟ .

على انه قد يكون في الخطأ بعض الصواب . فقد جرت في السنين الاخيرة اختبارات علمية عديدة أُعدّت لها آلات خصوصية . وقد وصفها الاب رور[2] . وقد يستنتج منها ان في الانسان ، ولاسيما في يديه ، قوّة طبيعية ماديّة ، تؤثر عن بعد ، حتى في نموّ النبات .

ولا بأس من تسمية هذه القوّة ، قلما يكون على سبيل الاستعارة ، « مائعاً حيويًا او بشريًا » . ولكن تُرى ماذا يكون كنه هذا المائع وما هو قوامه ؟ وهل وجوده اكيد ؟ وهل يجوز ان يُنسب اليه ما يُروى من الغرائب عن تدوير الطاولات كما وعن قراءة الافكار (*Idépathie*) كأن دماغ زيد يبعث مائعه الحيوي الى دماغ عمرو ، فيتموّج المائع كما تتموّج كهرباء اللاسلكي ، فتنطبع صور مخيلة زيد في مخيلة عمرو او تهيج فيها مثلها ؟ كل هذا لم يبح الينا العلم بعد بسرّه .

(للبحث صلة)

١) راجع Route ص ٢٥٨ — ٣٢٨

٢) ويسمّيه الدكتور صرّوف (ص ١٣) اكتوبلازم .

٣) ص ٩٢ — ١٥٧